الشيخ ابراهيم الحوراني

(٤) في الشعر

مما اوردهُ من اوائل شعرهِ بيتان نظمهما ليكتبا تحت رسمهِ وهما : —

يا معشرَ الاهل ذا رسمٌ يذكركم ... أوفى محبٍّ بنى بالعهد للابدِ
اودعتُ روحي حماكم بعد فرقتكم ... فبشّروا الروحَ هذي صورةُ الجسدِ

وبيتان آخران بهذا المعنى وهما : —

رسمي يمثّلني لمقلةِ من بهِ ... ولّعي وروحي في حماهُ تُقيمُ
يعقوبُ أشواقٍ اليكم مهجتي ... وانا بدينِ الحبِّ ابرهيمُ

وصاغ ابياتاً في السواك قال فيها : —

شاهدتها وسواكها في ثغرهِ ... بين العقيق فكان دمع الباكي
قالت بكى حسداً فقلتُ يُغيرني ... قبّيل عود بشامةٍ وأراكِ
قالت وهبتُ لكَ السواك فقلت لا ... ولمالكِ مالي حاجة بسواكِ

ونظم نثر يظاً لديوان المولى عثمان الضرير العراقي قال في مطلعهِ : —

نشر العراق على المقيم بشامهِ ... أرَجاً غنيَّ لوردهِ وبشامهِ

ومنهُ

يا ناظمَ الشهبِ الثواقبِ في الدجى ... اتركتَ للشعراء غير ظلامهِ
ما انت عثمانَ الضرير حقيقة ... بل انت ذو النورين في ايامهِ
لكنما اغمضتَ عن هذا الورى ... كي لا ترى ذا الجهل فوق مقامهِ

وقال متغزلاً في قصيدة يمدح بها احد السلاطين : —

اعلمتِ اني جوى واتيتُ بلوعِ ... بين الجوانح ساعة التوديعِ
حمّلتكِ جاريةُ المحيط كأنها ... برق سرى ليلَ النوى بهجوعي
جرت السفينة بالبخار وناره ... جمر الحشى والماء لجّ دموعي
ما انسَ لا انس التفاتها وقد ... عبث الفراق بشملنا المجموعِ
ونأت تلوّح للعميد تحيةً ... بديعٍ بهيٍ كزهر ربيعِ
منديل كفٍّ طيبهُ من جبهةٍ ... تندى لمحةِ عاشقٍ ممنوعِ

يعلو ويخفق في الهواء كأنهُ عَلَمٌ على حصنٍ اشمَّ منيعِ
ما كان اشبههُ بهجعةِ صيدٍ لولا سلامتهُ من التقطيعِ

ومنها في المدح : —

ظلُّ الاله على الرعية سيفهُ قطع الذئاب فصان كلَّ قطيعِ
محمولُ امرِ المجد موضوعُ العلى روحي فدى المحمولِ والموضوعِ

والقى في احد المحافل خطبة صدَّرها بقصيدة مطلعها : —

قدم الزمانُ وصبوتي تتجددُ فكأنني في كلِّ عصرٍ أولدُ

ومنها

قالت مشيبك أسودٌ في ناظري قلت الحقيقة ان لحظكِ أسودُ

وخطب في محفل آخر مفتتحًا خطبتهُ بقصيدة حسب عادتهِ قال في مطلعها : —

يا مهجةً لستُ أعطا الصبابةِ قاسأني عمَّن يهيم بغير هذا المنزلِ

ومنها

ذهب الشبابُ على جناح نعامةٍ واقى المشيبُ على اغرَّ محجَّلِ
قالت مشيبك عند ارباب الحجى طب افتوى بظباء دارة جلجلِ
تحت المشيب جواهرٌ لو قلَّدوا جيدي بها مشت النجوم بمحفلي
فاجبتها ولقد رقصت لشيبها رقصَ الغصون على غناء البلبلِ
لم يبقَ من تلك الجواهر غير ما خبأتهُ لرجالِ هذا المحفلِ

ونظم قصيدة عنوانها « العالم في الشرق » وهي من غرر قصائدهِ ومعجز شعرهِ ومطلعها : —

ذو العلم بين الطرس والرمحِ كالثَّيتِ بين العَضْبِ واللهذمِ
كلاهما يبغي علاه ولا ينالهُ الاَّ بسفك الدمِ
والاوَّل الاولى بفضلٍ لما في سعيهِ من شامل المغنمِ
فكم جرى ذو العلم في مجهلٍ حتى جرى ذو الجهل في معلمِ
وكم رعى في مهمهٍ كوكبًا حتى اهتدى السارون بالانجمِ
يجتاب ارجاء العلى رغبةً في كشف ما في الاطلس المظلمِ
طوراً تراهُ في جوار السهى وتارةً في جمرة المرزمِ
يرسم من كيوانَ خطًّا الى يوحى بلا نقسٍ ولا مرسمِ

ومنها

يا ويل من يعلم في بلدةٍ فيها كثير الوفر لم يعلم
يسقي الروى الظمأى ولكنهُ اظمأ من ملٍ ومن غيلم
يكسو عراة الحيّ من نسجهِ لكنهُ اعرى من المبرم

وقال في ختامها

ذي حالة العالم في موطنٍ يكرى بهِ ذو الفضل بالميسم
يركبهُ الجاهل من حلمهِ والمنطي صنوٌ لذي المحزم
لو انصف الدهر امتطى كلُّ ذي علمٍ اخا جهلٍ فلم يظلم

وقال في زوال الدنيا وقصر الحياة : —

يا غافلين تنبهوا ازف السرى وحدث مطيّ رحيلها الركبانُ
وحيّا الى دار البقاء فليس في دار الفناء لعاقل او طانُ
غبراؤها سوق الوغى وسماؤها فلك النحوس نجومهُ الاحزانُ
لا يسلم الجبار في حوماتها والمشتري في افقها كيوانُ
حكت العبادُ بها الهشيم وأصليت نار المصائب فالحياةُ دخانُ

وقال مقرظاً المقتطف في سنتهِ السادسة : —

هذي ثمار العلم ذُقها تعترف من لم يذق تمر المعارف ما عرف
قطفت لحذقها دون اتعاب اجتنى فجميع اثمار النهى في المقتطف

ونظم موشحاً دينياً مطلعهُ : —

لا يزيلُ الحزنَ او يروي الظما غيرُ صهباء الحبيب المؤنس
ربّ جود طهرت منهُ الدما كلُّ مختارٍ لهُ من دنس

دور

سيد الاكوان ان العبد لكْ بالذي ترضى لهُ كل الرضى
لا اقدّس شهيداً او ملك قبلهُ بل للذي عنهُ قضى
ذاك شمس البرّ في اعلى فلكْ لاح فيهِ كلُّ مفديٍّ مضى
اشرق الابرار فيهِ ابهجا نيراتٍ في سماء الاطلس
رنمت بالشكر حتى رغدا كلُّ شادٍ بالمقام الاقدس

وهو طويل قاله في عتابه : —

ايها الهادي غوى قلبي ولم ... يسأل ارشد نعمة السنن
طالما حادت به هوج الظلم ... عن سبيل القصد لم يهد السنن
فاتخذه اليوم من بعض الخدم ... واثقاً بالنشر لا يخشى الكفن
واكسه التبريز ثوباً مثلما ... بالسنى يزري ببرد السندس
واختم التقديس حتى يختما ... بالنبي قبل ختم المرسل

وقال في وجوب التيمن وترك التشاؤم : —

توسم الخير في كل الامور ولو ... شاهدت نار الرزايا في بوارقها
واستجد الصبر في حرب الخطوب وخذ ... رجاءك النصر سيفاً في مفارقها
ولا يسوءك غروب الشمس في غسق ... فانها كل صبح في مشارقها

وقال بعنوان « صوت الحق » : —

سر في سبيل الحق لا تخش الردى ... ابداً ولو رأيت قساورة الردى
واشهد بان الله ربك قادر ... يحيي الرفات غداً ولو طال المدى
ما كانت الاكوان من قدم ولم ... يخلق حكيم الكون دنيانا سدى
فغداً يحاسب كل نفس بالذي ... فعلت ويرفل بالسنى اهل الهدى

وقال في ختام تأبينه للعلامة المرحوم بطرس البستاني الشهير : —

يا غرس فضل لم يزل بستانه ... تجني به ثمر العلوم الانفس
غادرت اثمار الجنان بارضنا ... وغدوت في فردوس ربك تغرس
وملكت مفتاح السماء على الثرى ... فدخلت ابواب العلى يا بطرس

ثم شفع التأبين برثاة عصماء مطلعها : —

وطن الصفا نضبت عيون جنانه ... غبرى من الاحزان ذوب جنانه
وذوت حدائقه فناحت ورقة ... اسفاً فلبتها بلابل بانه
عبثت به هوج الردى فاستأصلت ... غرساً فنون العصر من افنانه
لولا فروع الفضل في جناته ... نضدت ثمار العلم من بستانه

وفي سنة ١٨٨٤ كتب في النشرة الاسبوعية مقالة وجيزة موضوعها المغفور له الخديوي محمد توفيق باشا فرثاها برسمه الكريم وختمها بقصيدة في مدحه مطلعها : —

ما لاح من صوب العذيب بريقه ... الا ودمع الصب سال عقيقه

ربع اليه يرى الركابَ يقودهُ شوقٌ يبرّح والغرامُ يسوقهُ
اجرى به عبراتِ قيسٍ عندما سُدَّت الى ليلى عليهِ طريقهُ
اذ بات يلقى من نوى سكانهِ ما مات في الاسكندرية بوقهُ
ايامَ دلاَّلُ النوازلِ والردى راجت بضاعتهُ وقامت سوقهُ
فرأيت فطرَ الانس يرهب وحشةً من انسِ بينَ قبيلهُ وفريقهُ
بغتِ الاعادي حفنةً فوقاهُ مَن رفع السماء وصانهُ «توفيقهُ»

وفي سنة ١٨٩٦ فجع بابنهِ المرحوم نسيب وهو في السابعة عشرة من عمرهِ فنظم فيهِ ثلث مراثٍ قال في مطلع الاولى : —

ما للمرابع اصبحت اطلالا وتحوَّل الروض الاريضُ رمالا
تجري الرياح فلا تصادف في انوى وادي الحدائق يانعاً او ضالا
وغدا المرأم في المغاني ناعماً يجد الهجيرَ ولا يُصيبُ ظلالا
اترى حدت باليفهِ عيس النوى سحراً فحوَّل عدوُها الاحوالا

وانها مشيراً الى والدة المرثي

كانت خلالاً لاشتمالك بالضنى ففقدت وقد زلت شعوب خيالا
وقفتْ على ذاك السرير كانما قلقُ الشراعِ يجاذبُ الادقالا

وقال في مطلع الثانية : —

صيَّرتُ دمعي شرابي والاسى قوتا حتى جرى من جفوني الدرُّ ياقوتا
وواصلتني عذارى لوعتي بنوى مَن بات حبل اقترابي منهُ مبتوتا
وسامرتني وأمُّ النجم رافدةٌ بناتُ نعشٍ وبات النجم مسبوتا
كأنهنَّ بواكٍ فوقهُ قمراً يحكي نسيباً فأنساها المواقيتا

وقال في الثالثة مخاطباً والدة فقيدهِ : —

قلب الغريب على مصاب نسيبكِ رهن اليليَّةِ مثل قلب قريبكِ
اشبهت اخيلةَ الفقيد من الضنى بحضوركِ الموهومُ مثل مغيبكِ
ما وقَّعتْ ورقٌ على عيدانها لحنَ النوى الاَّ بصوتِ نحيبكِ
تبكين يوسفكِ العشيةَ والضحى والحزنُ يلهب في حشى يعقوبكِ

وتوفي حينئذٍ المرحوم فؤاد نجل خليل افندي سركيس فقال يرثيهِ ولم يخرج عن رثاء والدهِ لكثرة العلاقات والمناسبات بينهما : —

لا يا حاجمات الورق نوحي على الغصن المغنّى في الضريح
خذي بدل الغضا والبان سروًا صقتهُ كلُّ داميةِ الجروحِ
هنالك نادبٌ غصّاً كسيراً يطلك النواح على الصحيح
هنالك موجعٌ يبكي «فؤاداً» وذو الم يتوح «نسيب» روحِ
خليلي محنةٌ بانا وكلٌّ بكى لجلا كاسمى الديح

ومنها

حملنا يا شريك الحزن وقراً به الجبارُ كالنضو الطليحِ
فكم عزّيتني وأصبتك نامٍ كسيل دمي من الجفن القريحِ
وكم عزّيتكم والجرح دامٍ وذا عطف الجريح على الجريحِ

ونظم في المرحوم الشيخ عبد الباسط الفاخوري الشهير مرثاة مطلعها : —

بني الحزنِ من تعنون فاز بقربهِ بديع البرايا ناظراً وجه ربهِ
فما مات عبد الباسط البرّ بل مضى الى جنةٍ اقطابها بعضُ صحبهِ
وأطعم فيها ما أشتهى من اطايبٍ وأورد تسنيماً فلذّ بشربهِ

وفي سنة ١٩٠٦ توفي المأسوف عليهِ المرحوم شاهين شقير فرثاهُ وعزّى اخاهُ سعيد باشا شقير بقصيدة مطلعها : —

من اعظم الأرزاء عمرٌ مديدٌ ما زدتَ عيشاً فالبلايا تزيدُ
هذا اختياريه بعد ما مرّ بي ما عشرهُ شيّب رأسَ الوليدُ
تنغيص دنيانا قديمٌ فما على ادیم الارض شيءٌ جديدُ
مدرسة الدهر التي هذبت ايوب شيدت منذ عهدٍ بعيدُ

ومنها

ما كوننا يا ليتنا لم نكن انفاسنا نارٌ ونحن الوقيدُ
كونٌ شقيٌّ كلُّ احداثهِ نوازلٌ لم ينجُ منها «سعيدُ»
ذو الجاه رب الفضل مولى النعى والعلم والآداب بيت القصيدُ
سهمُ الردى أصمى على غرةٍ شاهينهُ نسرَ النجوم المجيدُ

ومنها يا ايها الشهم الذي رأيهُ في معرك الارزاء سهمٌ سديدُ
ما رمت ارشاداً بما قلتهُ بل رمتُ ذكرى للخبير الرشيدُ
ذكّرتكم حرصاً على مهجةٍ إحسانها عقدٌ على كل جيدُ

وفي هذا القدر كفاية للدلالة على منزلته الرفيعة بين الشعراء والمنشئين وارباب الحجى وما لهُ من الفضل على تلاميذهِ ومريديهِ . واختم مقالتي هذه بالقصيدة التي نظمتها رثاء لهُ وإكباراً لمصاب الشرق فيهِ رحمهُ الله عداد ما نفع وافاد وعزّى عن فقدهِ كل ناطق بالضاد . قلت بعنوان « النفس الحزينة »

حشاك وناراً في فؤادي قادحه ودمعي وشأني فالرزيئة فادحه
ولا ترجُ لي صبراً ففضي حزينة وليست الى غير النفجع جانحه
تروح وتغدو والرزايا تسابق الـ رزايا اليها غاديات ورائحه
اقامت على قلبي الغموم مشيخة بكلكلها طول المدى غير بارحه
احاول بالسلوى التئاماً لجرحي الـ تدبير فتدميهِ الحوادث جارحه
ففي كل يوم لي الى الحزن والبكا دواعٍ واسبابٌ جفوني قارحه
وفي كلها ابكي فتروي الطيور عن شجوني وتغدو من حزني شارحه

***

اكتم ما بي والسواجم لاتني تنمّ على رغمي بسري بائحه
نسيجٌ وما يزيد انهمارها دواهٍ شداد للخلائق جائحه
دهتهم واصداء الديار امامها زواقٍ وغربان المنية صائحه
صلتهم لظى حرب ضروس دماءهم اطأت فتبخّت في الفصاص سائحه
دماء الملايين التي طمّ سيلها فاضحت بهِ الاجداد كالغور طائحه
دماء احلتها زبانية الشقا فكانت لها في هذه الحرب سالحه
بحرب محيا الشام غشّت خطوبها لهُ بسموم الضيم والضنك لافحه

***

بلاد كجنات النعيم وطيبها غواليهِ في اقصى البسيطة نافحه
ولكن هذي الحرب ردّت نعيمها جحيماً والقاها البلاء مطارحه
وعاثت بها ايدي الرزايا لسعدها بتصميم نحس مرهف الحدّ ذابحه
وشدّت عليها غمغطة الحصر فاغتدت تقلّب تحت البهظ والخسف رازحه
وصدّت على الاهلين حتى منافذ الـ هواء اليهم تاردى الباب فاتحه
فان لم يموتوا فيهِ جوعاً فمن جرى تباريح كرب ساخنات وبارحه
وكم من عزيز بينهم قد قضى وما سمعنا عليهِ بيننا صوت نائحه

يشق عليه الاهل ثم جيوبهم ونحن هنا نشقى الهنا ونسارحه

∴

كذا غاب ابرهيم عنا ونحن في توقع انوار بلقياهُ لائحه
تناقلت الانواء همساً نعيهُ وظلت تورّي عنهُ غير مصارحه
الى ان تجلّى الامر فيه واصبحت حقيقته لا تقبل الشكّ واضحه
اجل دار ابرهيم شيخ العلوم والـ معارف شطت عن محييهِ نازحه
مضى تاركاً في الشرق آثار فضلهِ نوافحها تبقى مدى الدهر فائحه
رشق على قلب اليراع فراقهُ فقلّم شقّيهِ ودقّ جوانحه
وفقدانهُ مال القريض وآلم الـ حصاب به اقطابه وجوانحه
وهل بعد ابرهيم للناس مطمع بـاجعة في روضة الشعر صادحه
ومن بعدهُ ان انشد الشعر شنفت فصائدهُ الاسماع بالدرّ نافحه
وهل بعدهُ في سامر الحي تشتهي مساجلة زند القرائح قادحه
ومن بعده للكيح والحلّ ان عصت علينا عويصات المسائل جانحه
وهل بعدهُ من صاح لامارة الـ بيانٍ فيحميهِ ويرعى مصالحه
وهل تسمح الايام للناس يا ترى بشانٍ لهُ هيهات ليست بسانحه

∴

عليك أبا سلمى العزيز حشاشتي تفيض جوى والعين بالدم نائحه
فف انظر فتلقى ابيك وابتك الالى سبقت نهم كانت اكبر فادحه
فجلاك في مصر يذوبان لوعةً و« فجلاك » في بيروت تحب نائحه
فقدناك فقد البدر صار بتمّهِ تعدّتهُ آثار الهدى عنهُ ماحه
وليس عجيباً ان يجزعنا الاسى عليك كؤوساً بالشجى طافحه
فقد كنت ريحان النفوس وطيبها وكانت ترى جذلانة بك فارحه
ولما افترقنا منذ عامين كان بال تلاقي تأسّينا فتراح صاحه
وما كان في حسباننا ان فرصة ال لقا واجتماع الشمل ليست بسانحه
تعمدك الرحمن بالعفو والرضى وعمنك منهُ رحمة عنك صافحه
ختمت بتقواهُ الحياة هنا فني ال حياة هناك أنعم بأين فاتحه

اسعد داغر